الرقيقة فى الحرف فى تحالفه أينما حل ومع أى حرف ائتلف . وكما تُراعى موسيقى التلفظ فى الكلمة الواحدة يجب مراعاتها فى الجملة والتعبير ، واذا تخالفت الموسيقى بين الكلمات قبحت وصعب النطق بها وقل تأثيرها ، وقد قدمنا انهم سموه تنافر الكلمات ولكنهم لم يتخذوا له من الموسيقى مقياساً وذلك ما سبب الاختلاف والاضطراب ؟

بغداد: مصطفى جواد

ابن رشيق

رأيه فى الشعر والشاعر

دخلت إلى درس عمدة ابن رشيق وفى نفسى له إجلال واكبار ولدىّ آمال عريضة فى أن أخرج من هذا الدّرس بمذهب شامل فى نقد الشعر وطريقةٍ محكمةٍ الوضع بين تناول الآثار الادبية والحكم عليها ونظرةٍ عالية الى وظيفة الشعر والشاعر فى الحياة ـ وكان عندى مبرر لهذا التفاؤل وهاته الآمال الغزار وقد قرأتُ تقاريظ كثيرة لكتابه وسمعتُ فى مجالس الأدب ثناءً حاراً على براعة نقده ودقة نظره وإصابة مرماه . ورأيتُ ابنَ خلدون يذكره فى عدة مواضع من المقدّمة ويثنى عليه ويجعله ثانى اثنين فى أفريقيّة فى الادب ويجعل كتابه نمطاً فى النقد لم يسبق اليه ولن يكتب بعده نظيره . وابنُ رشيق بعدُ من أهل القرن الخامس للهجرة وهو قد عاش فى عصر نضجت فيه العلوم العربية ودونت واستقلت فنون الآداب وانحدرت

اليه كتبُ أهل القرن الثالث مثل كتب ابن قتيبه والجاحظ وابن سلام وفيها النّواة الأولى لفن النقد الأدبى ثم انحدرت اليه كذلك كتب أهل القرن الرّابع مثل مؤلفات أبى هلال العسكرى والقاضى الجرجانى والآمدى ، وهى وان كانت تحتوى على ملاحظات فنيّة مفرّقة هنا وهناك فى غير نظام وعلى غير قاعدة إلا انها كانت أشبه بطفولة النّقد وسذاجة الصّبا، والقريحة النقادة التى خلقت حقاً للنقد لا يعجزها أن تجعل من هاته البذور الصالحة فناً مستقلاً قائماً بذاته تجمع شتاته فكرة عامة ووحدة شاملة وطريقة يبتدئ منها واليها يعود .

هكذا حدّثتُ نفسى قبل البدء فى قراءة العمدة وعلى هذا الأمل أخذتُها وعكفت على مطالعتها زمناً وقلبتها ظهراً لبطن وبطناً لظهر ولكننى — ويالخيبة — خرجتُ منها يائساً قانطاً وصدرتُ عنها حزيناً كئيباً وقُلتُ هكذا قضى على الأدب العربى أن يظلّ خالياً من النّقد وأن يبقى مرتبطاً بالرواية والبيان والبديع الى أبد الآبدين، وأن تنهج كتبه كلها نهجاً واحداً وتضرب على وَتر فردٍ وسواءٌ أخذتَ كتب القرن الأول أو الخامس فانك لاتجد إلا أقوالا متراكبة وأنقالاً متراكمة ولا تقرأ إلا الرأى ونقيضه والفكرة وضدها متداخلين متساندين فى موطن التّمثيل للنظرية الواحدة إلى غير ذلك من التشتيت والبلبلة والتداخل والفوضى والخروج عن موضوع الحديث واستطراد فى غير محله وكلّ ما يجعل تلك الكتبَ الكثيرة كتاباً واحداً ونُسخةً مكررة.

وقد ساءنى من ابن رشيق بالخصوص رأيه فى الشعر والشاعر: فالشعر هو آلة المدح والفخر وتحصيل المقام عند الملوك ومن فضله ان الشاعر يخطب الملك بكاف الخطاب وينسبه الى أمّه (١) وان الكذب الذى أجمع النّاسُ على قبحه حَسَنٌ فيه وأن للشاعر أن يُطرىَ نفسه وليس لأحد من الناس أن يفعل ذلك . ويردّ على من يكره الشعر بان النبي وجلة الصحابة كانوا يسمعونه ويحرضون عليه ويجازون قائله وان الخلفاء والامراء والقُضاة والفقهاء قالوه، وانه اذا بلغت بالدّنيء نَفسه وطمحت به همته إلى أن يصنع الشعر فانه يكفأ به الأيادى ويحل به صدر النّادى . ثم هو لا يقول لنا ما هو الشعر فى الباب الذى عقده لحده ، بل اكتفى بنقل آراء متباينة وحدود

متناقضة فى تعريفه منها الظريف ومنها المخزى الذى لا يدلُّ إلا على نظرٍ مُنحطٍّ الى الشعر . والعجيبُ انه يَنْقل تلك الاقوال المأفونة ولا يعقب عليها ولا يضيف اليها شيئاً من عنده. فمجال الكلام على الشعر مجال واسع والنظرة اليه تدلنا على مقياس لرجل ودرجة فكره .

بلى ! ان لدينا حدّاً شعرياً صنعه ابنُ رشيق بأمر ولىّ نعمته الكاتب ابن أبى الرِّجال :

الشِّعرُ شَيْءٌ حسنٌ ليس به من حَرَجِ
أقلُّ ما فيه ذَهَابُ الغَمِّ عَنْ نفس الشجى

إلى آخر الأبيات .

ذلك هو الشعر — أمَّا الشاعرُ فهو طالبُ فضلٍ !

قال (ص ٤٥) : « وأحمق الشعراء عندى من أدخل نفسه فى هذا الباب (أى السياسة) أو تعرَّض له ومالشاعر والتعرض للحتوف وإنما هو طالب فضل فلمَ يضيع رأس ماله ؟ »

وهو كالمهرج فى البلاط الملوكى : قال (ص١٤٩) : «والفطنُ الحاذق (من الشعراء) من يختارُ للاوقات ما يشاكلها وينظر فى أحوال المخاطبين فيقصد محابَّهم ويميل الى شهواتهم وإن خالفت شهوته ويتفقد ما يكرهون سماعه فيجتنب ذكره . . »

أليس هذا من المخزى ؟ أليست هاته وظيفة مضحك الملوك ؟ ثم إن الشاعر مأخوذ بآداب ملزم بمراعاتها فعليه أن يكون حُلوَ الشمائل نظيف البزة مأمون الجانب سهل النَّاحية وطىء الاكناف ليكونَ محبوباً عند الناس مزيَّناً فى عيونهم قريباً من قلوبهم ولتهابه العامة ويدخل فى جملة الخاصة .

ولك أن تقول إن هذه هى الارستوقراطية فى الصميم والتظرف فى أجمل مناظره .

ونحن نسأل ابن رشيق كيف كان البُحترى جليس المتوكل ونديمه الدّائم وهو مَنْ يعلم قذارةَ ووساخةَ ثوبٍ ؟ وكيف اختص أبو الفرج الاصبهانى بالوزير المهلبى

وهو لا يُطاقُ فى مؤاكلة ولا يزين المجلس بنظافة بزته ؟ أم أنّ المعول فى محبة الشاعر وقربه من القلوب غيرُ حلاوة الشمائل ونظافة الثوب ؟

والشاعر فى رأيه مطلوبٌ بمعرفة كل علم من لغةٍ وخبَرٍ وحسابٍ وفريضةٍ وعليه أن يأخذ نفسه بحفظ الشعر ومعرفة الأنساب وأيام العرب، ولا يجوز له أن يكون مُعجباً بنفسهِ مثنياً على شعره ، وعليه أن يتواضع لمن هو دونه ويعرف حق من فوقه من الشعراء. وغايةُ ما يطلب منه أن يكون نسيبه يُذلّ ويُخضع ومدحُه يُطرى ويُسمع وهجاؤه يُخل ويُوجع وفخرُه يخبّ ويضعُ وعتابهُ يخفض ويرفع .... إلى آخر ما هنالكَ من الكلام الكثير الذى تبحث فيه عن كلمة تَسندُ عفواً من قلمه تلمحُ منها نظرةً إلى صميم الشعر وفهماً عالياً لوظيفة الشاعر فلا تظفر بها ليس فى « العمدة » فقط بل فى سائر كتب الأدب القديم .

فأين نحن من حقيقة الشعر الخالدة — الشعرُ الذى هو أجلّ وأعلى صورة ظهرتْ فيها الفكرة الانسانية — الشعر الذى يستمد من الوجود مادّته ومن القلب وحيَه ومن الموسيقى جَرْسَهُ ونغْمتَهُ ، الشعر الذى يخاطب الحواس بمادىٍّ اللفظ ويناجى الروح بنُورانىٍّ المعانى فيستولى على الانسان كله جسماً وروحاً ويرفعه إلى عالم الفكر ويُقرّبه من حظيرة القدس فيعبُّ من نهر الحياة وينتشى بخمرة الجمال والكمال .

بلى ! وأينَ نحنُ من حقيقة الشاعر الخالدة ، الشاعر الذى هو رسول الحياة لأبنائها الضائعين فى دروبها الغامضة والمدلجين فى ظلماتها المدلهمة ، الشاعر الذى هو رائد المدنية وحامل شُعلة النور الالهى إلى الأمم الماشية فى حالك الظلمات أو المتخبّطة فى داجم المُلمّات ؟

وأنتَ تبحثُ عن العلة التى قعدت بالادب العربى عن اللّحاق بالآداب العالمية والانضمام إلى تُراث الانسانية وتحاول أن تتعرّف السبب الذي أبعدهُ عن الطبيعة الحية وفصله عن الحياة فيُمْكنُك أن تردّه إلى تلك النظرة الوضيعة التى كان يُنظر بها إليه والى هاته الوظيفة الحقيرة التى كانت تُسْنَدُ له .

فابتداءً من اليوم الذى دخلت فيه « الرَّغْبَةُ » وأصبح الشاعر يتزلّفُ به إلى الملوك والأمراء ويتصيد به البيضاء والصفراء صارت حياةُ الشاعر جزءًا من حياة الممدوح ومُكمّلاً له وملحقاً به،فهو لا يتنفسُ إلا فى جوّه ولا يحيا إلا فى

محيطه ولا يرى نفسه إلا فى مرآته ولا يفتح بصره فى هذا الكون إلا ليفتش فيه عن معنى يمتّ إلى الممدوح بصلةٍ ولا يُوجِّه فكره إلا فيما له علاقة قريبة أو بعيدة به .

فالبحرُ يرمزُ إلى كرم الممدوح وسماحته :

هو البحر من أىِّ النواحى أتيتَهُ فلجَّتُهُ المعروفُ والجودُ ساحِلُهْ !

والشمسُ ترمزُ إلى وضاءة وجه الممدوح وإشراقه :

وكأنَّ الشمسَ لمَّا طلعتْ فانجلتْ عنها عيونُ النَّاظرينْ

وجهُ إدريسَ بن يحيى آبن على ابن يعقوبٍ أمير المؤمنينْ !

وأفق السّماء خلقه الله ليتناوله الممدوح وهو قاعد :

لو نالَ حيٌّ من الدُّنيا بمكرمةٍ أفقَ السَّماءِ لنالتْ كفُّهُ الأفُقَا

والربيع يضحك لأن الممدوح جعله كذلك بأنسه :

يا سيداً أضحى الزمان بأنسه منه ربيعًا

والجبل سيمثل رصانة الممدوح وحلمه :

وإنْ هوى الجبلُ الراسى فذا جَبَلٌ راسٍ لنا بَعْدَهُ — أعظِمْ به جَبَلاَ !

والأودية تسيل ومكانُ تجمُّعِها يُشبه اجتماع الكرم فى صاحبه :

إن المكارمَ والمعروفَ أوديةٌ أحلكَ اللهُ منها حيث تجتمعُ

وهكذا وهكذا — وما ذا عسى القائل أن يقول والمحصى أن يحصى؟! وهل تكفى المجلدات للاحاطةِ بمثل هذا المعنى ولواحقه وإقامةِ الدَّليل على أن الشاعر القديم لا يسرّح نظره فى هذا الوجود إلا لينتزع من آياته صوراً يحتاج اليها فى نظم مديحه أو معانى يُضيفها إلى ممدوحه .

وأما قراءةُ كتاب الوجود لحلّ معضلاته وفض مُشكلاته والاشرئباب إلى أسراره والإفضاء إلى أغواره فذلك ما ظفر به القليلون من شعرائنا الأقدمين وهم أصحاب العبقرية التى تدفعها الحياة إلى ذلك دفعاً وتضطرها اليه اضطراراً .

وابتداءً من اليوم الذى قيل فيه انَّ أعذب الشعر أكذبه وانَّ الكذب الجمع على قبحه حَسَنٌ فيه أصبح الشاعر غيرَ مُطالب بالصدق ولا محاسبٍ على الحق، وسواء

أجدٌّ أم هزَل وأصابَ فى قوله أم خطلَ وخرق الطبيعة أم جاراها وخالفَ سُنن الله فى كونه أم وافقها وأتى بالمعقول أو بالمحال واتبع طريق الحق أم بُطلَ الضلال فهو غير مأخوذ بقوله ولا محاسب عن هزله ، ما دام كذبه سائغاً مقبولاً ومحالُه لطيفاً ظريفاً وما دام يُسلى ويُطرب ويُلهى ويُلعب ويدفع عادىَ السآمة وطارقَ القلق!

فلكى نعرف تُحولَ المتنبِّى العاشق نقرأ قوله :

كفى بجسمى نحولاً أننى رَجُلٌ لولا مخاطبتى إياكَ لم تَرنى

أو قول زميله الآخر :

ذبتُ من الشوق فلو زُجَّ بى فى مُقلة النائم لم ينتبهْ
وكانَ لى فيما مضى خاتَمٌ فالآنَ لو شئتُ تمنطقتُ بهْ!

ولكى نعرف هيبة ممدوح أبى نواس نقرأ قوله :

وأخفتَ أهلَ الشركِ حتى أنّه لَتخافُكَ النُّطَفُ التى لم تُخلَقِ!

أو قولَهُ الآخر :

حتَّى الذى فى الرَّحْمِ لم يكُ صُورةً لفُؤادِهِ من خوفِهِ خفقانُ!

أو قول أبى تمّام :

لقد بكَّ عبدُ الله خوفَ انتقامِهِ على الليلِ حتى ما تَدِبُّ عقاربُهْ!

وحتى البكاء يكون بعين واحدة :

بكتْ عينىَ اليسرى فلما زَجرتُها على الجَهْلِ بعد الحلمِ أسْبَلَتا معا!

فماذا وراء هذا وأمثاله الكثير جدّاً غير المبالغة الكاذبة والغلوّ الفاحش والبعد عن البساطة التى هى سمة الأدب العالى وعنوان القريحة المطبوعة ؟

وهاته النظرة الوضيعة هى فى رأيى علة وقوف الشعر وجموده على تلك الانواع المنحصرة فى المدح والهجاء والفخر والرّثاء كما انها سببُ رُكود ريح النقد وبقائه على عهد الطفولة. وهكذا ظلّ الشعر ضائعاً فى الذكاء واستنباط المعانى اللّطيفة البارعة أو ما يسميه الافرنج « subtilités » وبقى النقد كذلك لا يشتدّ أسره ويقوى ساعده لانه قنع من الشعر بتلك المعانى البارعة والاستعارات المستجادة والكنايات اللطيفة وظلّ يتناول القصيدة بيتاً بيتاً وشعر الشاعر الواحد متجزّئاً مقسماً كل جزء

يلحق بنوعه فى باب البديع ولم يتناول البتة روح القصيدة وفكرتها العامة ولا طبع القائل ومزاجه الخاص به وذاتيته الشائعة فى آثاره ثم يرد كل أثر الى مؤثره وكل مكوَّن إلى مكوِّنه ويتبين مدى العوامل السياسية والعوامل الاقليمية والفروق الجنسية فى تكوين الأثر وتكييف صاحب الاثر.

فلكى يتبدل أدب أمة يجب أن تتبدل مقاييسها وقد آن أن تتبدَّل مقاييسنا ليتبدل أدبنا ، فلننظر الى الشعر نظرة عالية ولنرفعه إلى درجة الوحى حتى يكون عنصراً من عناصر الجمال البادية والخفية فى هذا الوجود ولنطلب من الشاعر أن يكون جاداً لا هازلاً وقائداً لا مقوداً ولننظر اليه كصاحب رسالة فى الحياة يرفع الجماهير إلى مثله العليا ويغريهم بطلابها.

ذلك ما يجب أن يكون عليه الشعر والشاعر فى هذا العصر وما يجدر بنا أن نكرّره على الدّوام ونركزه فى الاذهان ؟

تونس : محمد الحليوى

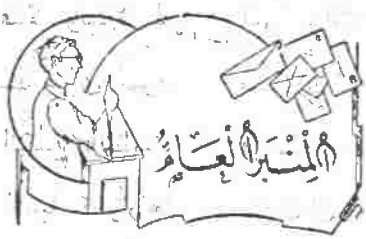

الشعر الفلسفى

الحياة والموت

كان الدكتور يعقوب صروف رحمه الله فى رحلته الأخيرة الى أوروبا فجاشت نفسه بهذه القطعة الفلسفية . وقد جرى فى القصيدة على مذهب الذين يستدلون على خلود النفس بان فناءها يجعل أعمال الخالق من قبيل العبث الذى لا يسلّم به عقل عاقل ، غير انه اعترضته بعد ذلك فكرة أخرى : هى ان فى جسم الانسان من التركيب العجيب الذى بلغ ما بلغه من التطور المستمر من قرون لا تحصى ، بل فى كل جزء من أجزاء الجسم من الحكمة والدقة والقصد ما يفوق وصف